من رسالة الى صديق

حول التجـــديد

. . . الجديد جديد فى مظهره ، قديم فى جوهره ، لا يصلح موضعاً للدرس ولا موضوعاً للحديث .

ستقول : اذن ما بال هذه القصائد الرائعة التى يجلوها الشعراء والمقالات الرائقة التى يدبجها الكتاب ؟ فأقول لك انك اذن تفهم من كلمتى القديم والجديد غير ما أفهم ، وتريد من مدلولها غير الذى أريد . كأنك تريد بهما ما كان يريده الأقدمون حين كانوا يتبارون فى شعر امرىء القيس وجرير وأبى نواس وأبى تمام والبحترى والمتنبى وابن هانىء . والأقدمون كما تعلم إنما كانوا يختلفون فى شكل الشعر لا فى موضوعه ، فهم يتكلمون فى اللفظ الجزل والركيك ، والأسلوب الرصين والمهلهل ، والمعنى المسروق والمطروق ، والتشبيه المنتزع من وجوه البادية أو من صور الحضر ، والمطلع الجيد والردىء ، والتخلص الحسن والقبيح ، ويجرون فى كل ذلك على أذواق تختلف باختلاف الطبقات والبيئات والصناعات والأجناس . وعذرهم فى ذلك واضح . فالشعراء لأسباب فطرية واجتماعية ، لم يقدموا اليهم الا نوعاً واحداً من الشعر هو ما يتعلق بالوجدان والعاطفة . فكان النقاد أمام وحدة الشعر العربى ونقصه ، مسوقين الى أن يقصروا جهودهم على لفظه : يحكمون معدنه ، ويعجمون عوده ، ويسبرون غوره بالموازنة والمقارنة والتعقب . والشكل الخارجى حكمه حكم اللباس والأثاث والآنية : يتغير بتغير الزمان والمكان والحالة ، ليس لأحد فى ذلك حيلة .

فهل ترى أن أبا نواس مجدد بالاضافة الى امرىء القيس ؛ لأنه بدأ قصيده بوصف الخمر ، وتكلم فى الغلمان والطرد ؟ أو أن المتنبى مجدد بالاضافة الى أبى نواس ، لأنه داف شيئاً من فلسفة اليونان فى شعره ؟ أو أن مطراناً مجدد بالاضافة الى المتنبى ، لأنه ذكر القطار والكهرباء ، ولون أدبه بأدب الغرب ؟ انى لا أرى فى مثل هذا التفاوت الظاهرى تجديداً . ما دام الشعر قد ظل فى كل هذه العصور واحداً فى موضوعه وطريقه ونوعه وورنه . . أما تغير الشكل فذلك فعل القانون العام الذى يغير أبداً كل شىء .

وهل قصد أحد من هؤلاء وأولئك الى هذا التجديد المزعوم فجاهد فى سبيله أهل جيـــله ، كما فعل أرباب المذهب الاتباعى (Classique) والابتـــداعى (Romantique) والواقعى (Realisme) فى فرنسا مثلا ؟ ؟ لم يكن شىء من ذلك ، لأنهم لم يختلفوا كما اختلف العرب فى الموضوع والنوع حتى تباين الأغراض من تلك المواضيع ، وتشعب المسالك الى هذه الينابيع . وهل سمعت أن الناس اختلفوا يوم تركوا العلبـــة الى الكوز والكوب والقدح والجام ؟ أم علمت أنهم اختصموا كلما تغيرت موادها من الجلد الى الخشب ، ثم الى الخزف ، ثم الى الزجاج ، ثم الى المعدن ؟ كلا ! لم يسمع أحد بذلك ، لأن اللبن والماء وهما القصد والغاية لم يتغيرا منذ خلقهما الله . أما حين تغير الشراب من اللبن الى الخمر فقد حدث الخلاف وتشعب الرأى وتعددت المذاهب .

الحق أن التجديد لا يحدث ، والجديد لا يكون ، الا متى وجد القصص والتمثيل فى الشعر فيكمل ، ودخلت الأقصوصة والقصة والرواية فى النثر فيتم . أما ادعاء التجديد بالدعوة الى العامية وترجمة الأساليب الغربية فعجز يتظاهر بالقدرة ، وجهل يتستر بالتحذلق !

ا . الزيات

السائل

بينما كنت أسير فى إحدى الطرق ، وقفنى سائل مسكين بوجه شاحب ، وعينين داميتين ، وشفتين متقلصتين ، وقدمين مرتجفتين . فقلت فى نفسى :

أوه ! ما أتعس هذا الشقى !

قدّم إلىّ يده الحمراء النحيلة القذرة ، وطلب منى صدقة بصوت يخنقه البكاء .

فوضعت يدى دون أن أفكر ، وقد أخذتنى الشفقة على هذا البائس ، وضعتها فى جيوبى ، ثم جعلت أبحث فيها عن شىء أعطيه إياه ، ولكنى وا أسفاه لم أجد شيئاً ، لا نقوداً ولا ساعة ، حتى ولا منديلا !

صار موقفى حرجا ، وما زال السائل مادّاً إلىّ يده واثقاً كل الثقة من العطية !

لم أعرف ماذا أعمل ! . وفى النهاية أخرجت يدى وأنا حيران خجل ، ثم مددتها وصافحت يده الممدودة قائلا :

« أنا آسف يا أخى فليس معى شىء » .

ولم أكد أتم هذه الجملة حتى رأيت عينى السائل وشفتيه تفترّان عن ابتسامة رقيقة ، وإذا به يضغط على يدى شاكراً منا وهو يقول :

« حسناً يا أخى ! شكراً لك ! ان هذه أيضاً صدقة ! »

م . يونس